عظمة الكون

وجهل الانسان

لما سكتنا القلم لنكتب الفصل الذي افتتحنا بهِ متتطف مايو وموضوعهُ «اعجب النجوم المتغيرة» ورسمنا دوائر تمثل ذلك النجم و بعض النجوم التي قيست اقطارها حاولنا رسم دائرة تمثل شمسنا نسبة اليها فوجدنا بالحساب ان تلك الدائرة تكون اصغر من ان ترسم على القرطاس

الشمس وجرمها اكبر من جرم كرتنا الارضية ٣٣٢ الف مرة وحجمها اكبر من حجم كرتنا مليون و٣٣٠ الف مرة يتعذر رسمها مع هذا النجم لصغرها نسبةً اليهِ فما هو شأن كرتنا الارضية التي تحارب الممالك على رقعة منها و يتنازع الناس و يتقاتلون على بضعة امتار من سطحها

وما ذلك النجم وما تلك النجوم الاربع التي رسمناها الاَّ نقطة في بحر الكون المملوء بكواكب لا تحصى نرى منها بعيوننا الوفاً وبالنظارات ملايين وحسبها مبعثرة في الفضاء لا ضابط لها والحقيقة انها منتظمة في حُبُك سابحة في الفضاء واكثرها شموس كلٌّ منها اكبر من شمسنا مراراً عديدة ونورها الذي يصل الينا ونراها بهِ مضى عليهِ سائراً مغذًّا بسرعتهِ الفائقة الوف من السنين

هبط الفكر بنا من النظر الى السماء كليلاً وطاف حول الكرة الارضية برها و بحرها قاراتها وجزائرها جبالها ووهادها وراقب ما فيها من الاحياء فتدرَّج من الحوت والفيل اكبرها الى الحشرات والهوام بل الى المكروبات التي لا ترى بالمكرسكوب لصغرها والى جواهر الاجسام والكهارب التي تتألَّف تلك الجواهر منها فاعترانا الذهول

مَن كوَّن هذا الكون ؟ مَن سنَّ لهُ النواميس التي يجري عليها ؟ ومَن يستطيع ان يدرك عظمتهُ؟ من يستطيع ان يعلم قصدهُ من خلقهِ؟ كم من ملايين السنين مرَّ منذ كوَّن نظامنا الشمسي وجهزهُ بقوة لا يحد العقل مقدارها بقوة تمكِّن هذا النظام من السير بها والدوران المتوالي ملايين من القرون . ما لنا نحاول ادراك ما يستحيل علينا الوصول اليهِ من اجرام السماء ونحن اعجز من ان ندرك نواميس ما في ارضنا من الكائنات بل ما في بيوتنا من الاحياء بل ما في اجسامنا من الاعضاء . كيف يتحول طعامنا الى دم؟ ان كنت

تعلم ذلك فاصنع من الطعام قطرة من الدم . كيف تنقبض قلوبنا وتنبسط ثانية بعد ثانية مدى الحياة . ان كنت تعلم ذلك فاصنع قلباً ينقبض وينبسط لذاته ولو ساعة واحدة . اي معمل من معامل فورد او كروسلي يستطيع ان يصنع آلة تغتذي من الخبز واللحم وتتحرك دواماً ستة بعد اخرى كما تتحرك قلوبنا . وقس على ذلك افعال المعدة والامعاء والكبد والطحال والرئتين والكليتين . اما افعال الاعصاب والدماغ فايُّ عقل لا يقف عندها مذهولاً اذا فكّر في اعمالها . وما يصدق على جسم الانسان يصدق على اجسام الحيوانات كلها حتى النمل والبعوض وما لا يرى منها لصغره ويصدق ايضاً على انواع النبات والمكروبات

الكون عظيم فلا بد من ان يكون الكون اعظم وان تكون قدرتهُ شاملة وعينهُ ترقب مخلوقاتهِ ونحن كلنا عراة لديهِ ظواهرنا وبواطننا

ولكن انظر الى ما في العالم مما لا تدركهُ عقولنا بل تحار في تعليله لانها تراهُ مناقضاً لما يقتضيهِ نظام الكمال . يعمّر الناس مدينة وينظمونها احسن تنظيم فتقع فيها زلزلة تهدم مبانيها وتقتل سكانها لا لانهم جنوا ذنباً لم يجنهِ غيرهم فعوقبوا بهِ بل لانهُ اتفق ان بعض القوى الطبيعية فعلت هذا الفعل . تحمل البراغيث مكروب الطاعون الى امة آمنة فينتشر الوباء فيها يثكل الوالدين ويتم الاولاد ولا ذنب جنوهُ . يولد الانسان ويشبُّ ويتعلّم فينمو بدناً وعقلاً . جسم يحير العقول تركيبهُ وعقل يصل بحثهِ الى اكناف السماء واعماق الارض فيبني البيوت ويؤلف الكتب فتبقى قروناً وهو يموت ويضمحل ولا يبقى منهُ في هذه الارض الأ حفنة من التراب . والناس في ذلك متساوون من اعلمهم الى اجهلهم من اقوامهم الى اضعفهم من اغناهم الى افقرهم من اصلحهم الى اطلحهم كأن لا قيمة للعلم والقوة والفضيلة . ويتعذر علينا التوفيق بين هذه المتناقضات وامثالها وغاية ما تستنتجهُ عقولنا مما تراهُ ان الكون عظيم جداً والكون اعظم واننا عرفنا الشيء اليسير من نواميس هذا الكون وما لم نعرفهُ اكثر مما عرفناهُ بما لا يقدر قبيلنا ان نعترف بجهلنا ونقول لا ندري

فمن وقف هذا الموقف وقال لا ادري أيصحُّ ان يعبّر بذلك ويقال عنهُ انهُ من المعطلين هل يلام الانسان اذا عرف انهُ جاهل واعترف بجهله ؟ أوَ ليس اعتراف اللاادريين بانهم لا يدرون اشرف وانبل من الادعاء بمعرفة امور مجهولة او من تسخير العقل للتسليم بما يراهُ مناقضاً لهُ